نظريات التعلم:

تصورات عن تأسيس الفعل التعلميين الماضوية والراهنية

احمد البوعزاوي

تقديم عام:

لقد أعطت الأنوار دفعة قوية لمجال البحث العلمي المنهج في مختلف المجالات وذلك بناء على الرغبة في توخي النتائج العلمية الدقيقة بعيدا عن التأويل والعمومية؛ ولكن في ملازمة للنسبية نظرا للتنوع والتعدد الذي تعرفه الظاهرة الإنسانية والتي قد لا تقبل التعميم في كثيرا من الحالات على اعتبار الظروف البيئية التي تحول دون ذلك.

وكما هو معلوم، سيتسع مجال اشتغال العديد من العلوم من بينها علم النفس الذي سيعلن عن استقلاله عن الفلسفة ليشمل بالدراسة والتحليل كل من الحيوان وأيضا الإنسان من خلال دراسة السلوك أو التصرف وذلك باعتماد أسس منهج البحث العلميعلى أساس تحديد فرضيات الانطلاق من أجل الخلوص إلى نتائج مبرهنة وبالتالي العدول عن التأمل الفلسفي... إنهابلا شك رغبة مؤكدة في الخضوع لمنطق التجربة.

وفي سياق علم النفس التربوي ستتم محاولة مقاربة موضوع التربية وذلك باستحضار مضامين علم النفس لينطلق العمل بحثا في إشكالية التعلم من خلال اعتماد

وو في سياق علم النفس التربوي ستتم محاولة مقاربة موضوع التربية وذلك باستحضار مضامين علم النفس لينطلق العمل بحثا في إشكالية التعلم من خلال اعتماك منهجى التجريب والملاحظة كآليتين لاشتغال كل من علم النفس التجريبي وعلم النفس العيادي وذلك بالاقتصار على العلاقة بين المثيرات les stimulus والاستجابات les réponses فی تحلیل عدد من الظواهر الإنسانية. 26

السلوكية التي قامت بتجاربها على الحيوانات محاولة بذلك تعميمها على الإنسان، دونما تفكير فيالظاهرة السيكولوجية المتميزة والمتنوعة التمظهر، نظرا لكونها فسرت فيزيولوجياعلاقة المثيرات بالاستجابات الصادرة عن الجهاز العصبي دون الأخذ بعين الاعتبار للشخصية أ، حيث تتحدد هاته الأخيرة كتركيب ديناميكي متكامل وفريد متضمن أحيانا لبعض الصفات المشتركة بين الأفراد، في حين أن الوضعية تفسر على أساس أنها مجموع الظروف المميزة التي يوجد فيها الفرد والتي تربطه مع الجماعة والبيئة التي يعيش ويتحرك فيها.

وهنا سر المفارقة بين علم النفس الكلاسيكي الذي فقد تنظيمه وغائيته باقتصاره على دراسة السلوك من خلال مفهوم الاستجابة العضوية دون اعتبار للشعور ليفسح المجال أمام علم النفس الحديث الذي سيهتم بالدراسة العلمية للتصرف خصوصا عند مراقبة ما يصدر عن الأطفال عند تعرضهم للمواقف التي سيتم التفكير فيها مسبقا من أجل إخضاعها للمنطق... غير أن النتائج ستبقى نسبية بطبيعة الحال نظرا للاختلافات الواردة على مستوى الشخصيات وكذلك الوضعيات ناهيك عن اختلاف الثقافة المجتمعية عموما.

لم يحظ أي موضوع من موضوعات علم النفس بما حظى به موضوع التعلم من

منهجى التجريب والملاحظة كآليتين لاشتغال كل من علم النفس التجريبي وعلم النفس العيادي وذلك بالاقتصار على العلاقة بين المثيرات les stimulus والاستجابات les réponses في تحليل عدد من الظواهر الإنسانية، غير أن هذا الوضع سيدفع بعلماء النفس للاعتراف بعدم كفاية العلاقة مثير - استجابة للإحاطة بكنه مجال الدراسة، ليتم بعد ذلك اعتماد مبدأ الاستبطان والذي سيثبت بدوره قصوره في تناول الظواهر الإنسانية بالدراسة والتحليل وبالتالى تناقضه والموضوعية العلمية. والاستبطان كان بمعنى اعتماد شهادة الفرد موضوع التجربة من خلال ما سيأتي في طى حديثه عما يحسه ويشعر به وكدا عما راكمه من تجارب شخصية وهذا الأمر يعد مثيرا للاستغراب... فكيف سنعتمد كلاما - غايتنا منه الوصول لخلاصات علمية - صادرا عن أشخاص من الوارد أن تكون تصريحاتهم غير صحيحة أو ربما تعاكس شعورهم الحقيقي؟

يمكننا أن نعتبر أن البداية في البحث في العلاقة بين المثيرات والاستجابات وفق المنهج التجريبي لدى البيهافيوريين كانت سنة 1913 مع الباحث الأمريكي جون واطسنJ.B Watson وذلك من خلال ملاحظة استجابات الكائن الحي. لذلك يعتبر واطسن مؤسسا ورائدا للمدرسة

عمق في البحث والدراسة؛ فالتعلم وثيق الارتباطبالبشرية منذ نشأتها:

فما المقصود بالتعلم وكيف تطورت وتعاقبت النظريات التي اهتمت به وجعلته موضوعها وغايتها؟

I. الإطار المفاهيمي:

- «التعلم»

التعلم هو نشاط ذاتي يقوم به المتعلم ليحصل على استجابات لدوافعه الفردية ويكون مواقف يستطيع بواسطتها أن يجابه كل ما قد يعترضه من مشاكل في حياته اليومية. والتعلم في علاقته بالعملية التربوية برمتها يهدف إلى تمكين المتعلم من الحصول على الاستجابات المناسبة والمواقف الملائمة قصد محاولة النجاح في مواجهة الوضعيات التي سيصادفها.

ولمزيد من التحديد يمكننا أن نستعين بما ذكره عبد الحق منصف 2 للتمييز بين التعلم بمعناه السيكولوجي من جهة وبمعناه البيداغوجي من جهة آخرى وهو ما من شأنه أن يسعفنا للإحاطة أكثر بمفهوم التعلم 2 .

والتعلم لا يمكننا دراسته إلا من خلال متابعة ومراقبة السلوك الملاحظ، فقد اعتبره جيلفورد J.P Guilford «تغيرا في السلوك ناتج عن الاستشارة». غير أن تعاريف من هذا القبيل ستعتبر مشكلة في حد ذاتها، حيث سيثبت لدى أخصائيين في علم النفس أن

السلوك لا يعتبر مؤشرا عن التعلم كما أن غيابه ليس دليلا على عدم حدوثه.

«التعلم هو عملية اكتساب لسلوك أو تصرف معين... يتم هذا الاكتساب في وضعية محددة ومن خلال تفاعل ما بين الفرد المتعلم والموضوع الخاص بالتعلم».

وقد عملت بعض النظريات التربوية على الاستدلال على حدوثه من خلال ترجمته إلى تفكير على اعتبار أن التفكير يعد استراتيجية من شأنها استدعاء المعارف السابقة ومحاولة فهم عناصر المسألة باعتبارها متكاملة.

- «النظرية»

تعتبر النظرية «إنشاء تنظيريا للعقل، يربط النتائج بالمبادئ مقابل ممارسة في نظام الوقائع: ما يكون موضوعا لمعرفة متجردة، مستقلة عن تطبيقات» 4.

II. نظريات التعلم:

لقد جاءت نظريات التعلم نتيجة محاولات لفهم ما يجري في خبايا عقل الطفل البالغة التعقيد، فسادت في أواخر القرن 19 م أفكار لمفكرين وعلماء مثل بستالوزي، هاربارت، جون لوك وغيرهم كثير محاولة تطبيق مبادئ علم النفس على التربية من أجل إيجاد تعليم قائم على أسس علمية.

النظرية الترابطية أو المحاولة والخطأ 5 Edward Lee Thorndike 5

بدأت نظرية ثورندايك في التعلم عند نشر أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه سنة 1898 حول موضوع: «ذكاء الحيوان»، فاستطاع أن يكون له تأثير مباشر على نظريات التعلم وعلى علم النفس والتربية عموما. لكنها اقتصرت على اعتبار التعلم خبرة فردية خاصة أو عملية تغيير عضوية داخلية تحدث في الجهاز العصبي لكل كائن على حدة مع تغييب كامل للبعد الاجتماعي وهو ماسارت عليه مختلف النظريات ذات المرجعية السلوكية...

فالتعلم عند ثورندایك هو تغیر آلي 6 السلوك یتجه تدریجیا إلى الابتعاد عن المحاولات الخاطئة أي من خلال تكرار المحاولات الناجحة التي تؤدي إلى إزالة حالة التوتر والوصول إلى حالة الإشباع.

وقد عرفت نظرية ثورندايك بالترابطية نظرا لأنه اعتقد أن التعلم عملية تشكيل ارتباطات بين المثيرات واستجاباتها خصوصا إذا ما تم تعزيز المكافأة كما جربه على الحيوانات، حيث وضع قطة في قفص له باب يمكن فتحه إذا سحبت القطة الخيط المدلى داخل القفص، وبالتالي تتمكن منالحصول على الطعام (المكافأة) الموجود منالحصول على الطعام (المكافأة) الموجود أن الوقت الذي تستغرقه القطة يتناقص تدريجيا إلى أن أصبحت تسحب الخيط فور دخولها للقفص ليفسرتحقق التعلم بتقوية الرابطة بين المثير والاستجابة.

ويؤكد ثورندايك على أن قانون الأثرها المنافرة أن المنافرة المنافرة المنافرة المنافرة المنافرة النعلم كما أنه حاول أن يدعو إلى الاهتمام برغبات وحاجات المتعلمين من خلال جعل المؤسسة التعليمية فضاء رحبا لاستقبالهم مع التأكيد عن ضرورة التخلي عن العقاب الذي سيعتبره غير مساهم في تثبيت التعلم.

ومن الممكن أن تتضح لنا الرؤية بالعودة لقانون المران المران العانون المران بتأكيده على ثورندايك عدل من قانون المران بتأكيده على أن مجرد تكرار الحركات لا يؤدي إلى عملية التعلم بل يجب أن ينتج عنها حالة إشباع لكي يحدث التعلم. والواقع أن هذا التعديل يمثل تغيرا كبيرا في نظر ثورندايك إذ جعل الأثر ذا القيمة في عملية التعلم قاصرا على الأثر الطيب الذي يؤدي غلى حالة ارتياح... أما العقاب فلا نتيجة له في هذا التعديل» 8

لابد من الإشارة للاستنتاجات التي ظلت تحسب لصالح نظرية المحاولة والخطأ والتي من المفروض استمرارية العمل بها لأنها كانت موفقة فيما أشارت إليه:

- إعطاء التلميذ فرصة بذل الجهد في التعلم وذلك من خلال المحاولة.
- ربط مواقف التعلم بمواقف مشابهة لحياة التلميذ اليومية.
- التركيز على الأداء والممارسة بدل الإلقاء.

2. نظرية الإشراط الكلاسيكي او Ivan Petrovitch Pavlov⁹ الاستيجابي لبافلوف

في واقع الأمر قام بافلوف بتجارب مختبرية من أجل فهم السلوك وذلك عن طريق محاولة فهم وظائف أعضاء جسم الكائن الحي، حيث أنه أجرى على الكلب عملية جراحية على مستوى الغدد اللعابية تجعله يتحكم في قياس إفراز اللعاب بعد الاستجابة الشرطية بالإضافة إلى دراسته للجهاز الهضمي للكلاب فقرر البحث في العوامل الداخلية.

تفسر خطوات عملية الإشراطنظرية بافلوف الدماغية، حيث الاعتقاد بأن المثير الشرطي يحدث أولا ولذلك فهو يثير النشاط في مراكز الجوع في الدماغ مع فتح ممر عصبي جديد يصبح معه المثير الشرطي بديلا... فالجرس الذي كان في البداية مثيرا شرطيا دون استجابة لعابية، أصبح فيما بعد مثيرا شرطيا باستجابة شرطية.

ولمزيد من الفهم للإشراطالبافلوف أو الكلاسيكي أو الاستيجابي لابد من التعريف بما يلي:

- الاستجابة غير الشرطية: الاستجابة الانعكاسية غير المتعلمة.
- مثير محايد: لا يستثير أي استجابة
- مثير طبيعي (غير شرطي): يعمل على إظهار الاستجابة الانعكاسية غير المتعلمة.
- الاستجابة الشرطية: الاستجابة المتعلمة التى تشبه الاستجابة الطبيعية.

- مثير شرطي: هو المثير المحايد بعدما سبق المثير الطبيعي عدة مرات وأصبح يستثير استجابات انعكاسية ولكن قوته أضعف.

غير أنه لاحظ أن كميته تقل شيئا فشيئا، بعد تكرار دق الجرس، دون تقديم الطعام إلى أن انقطعت وهو ما عرفه بالإنطفاء.

يعتبر بافلوف الإشراط مبدأ أساسيا في التعلم عند كل من الحيوان والإنسان على السواء دون اكتراث بدور الفهم في هذه العملية كما أنه أعلى من شأن التعزيز من خلال ربطه بدوافع المتعلمين الحقيقية.

وهو يشير إلى أن التعلم يحدث عندما يكتسب المثير المحايد القدرةعلى جلب استجابة جديدة نتيجة اقترانه بمثير قادر على إحداث نفس الاستجابة بصورة انعكاسيه طبيعية.

3. النظرية الإجرائية أو نظرية الإشراط الإجرائي لسكنرB.F Skinner

يعد سكنر من بين علماء النفس الارتباطيين ومؤسسا للتيار السلوكي الراديكالي، فهو ينتمي الى مدرسة ثورندايك ويعد متؤثرابأعمال بافلوف... لقد انصب اهتمامه على دراسة توقع السلوك وكيفية التحكم في ذلك السلوك الظاهر الذي من الممكن ملاحظته دون الارتباط بمحددات فسيولوجية أو عقلية بين المثيرات والاستجابات على اعتبار أن علم النفس هو علم السلوك الظاهر.

يميز سكنر بين عنصرين مستقلين عن بعضهما البعض السلوك والجهاز العصبي، بحيث يكون لكل منهما أساليبه وطرائقه ومعطياته الخاصة.

يعتبرالسلوك بالنسبة إليه هو النشاط الصادر عن الكائن الحي والذي من المكن ملاحظته وقياسه ويفرق بين نمطين من السلوك:

- السلوك الاستيجابي الذي ينتزع من الكائن الحي نتيجة لتأثير مثير خارجي؛

- السلوك الإجرائي بحيث هو سلوك تلقائي عملي يصدره الكائن الحي في بيئته ليجري تعديلات عليها من أجل تحقيق منفعة خاصة له...

وبالتائي يكون التعلم من وجهة نظره عبارة عن تغيير في احتمالات حدوث الاستجابة نتيجة الإشراط الإجرائي اله du conditionnement opérant الإجرائي هو عملية التعلم التي تصبح فيها الاستجابة اكثر احتمالا للحدوث أو التكرار...

وكتطبيق عملي للنظرية الإجرائية في ميدان التربية نجد فكرة التعليم المبرمج الاصدان التربية نجد فكرة التعليم المبرمج سكنرعلى أساس أن تكون المادة العلمية متدرجة وفي كل مرحلة يعقبها التعزيز حتى يتم الانتقال الى المرحلة الموالية (تعزيز الاستجابة الإيجابية المرغوب فيها).وهو ما

سيمهد لثورته العلمية في مجال التعليم من خلال تصوره عن الآلة التي ستساعد المتعلم في تثبيت البرنامج التعليمي المتدرج الذي لن يسمح له بالمرور للمرحلة الموالية إلا بعد فهم مضامين المرحلة السابقة والتي من شأنها أن تتأكد بالإجابات الصحيحة الصادرة عن المتعلم.10

4. النظرية الجشطالتية Wolfgang Köhler¹¹

مع مجيء هذه النظرية أصبحنا نتحدث عن الإدراك وهذا يظهر نقطة تحول مهمة في سيرورة التعامل مع التعلم كسلوك ظاهري وقابل للملاحظة الشيء الذي لم نعهده مع المدارس السلوكية، فالتعلم وفق هاته النظرية سيصبح هو إعادة تنظيم الإدراك أو العالم السيكولوجي عند المتعلم.

والجشطات بمعنى تقديم بنية دالة للسلوك الذي يقوم به الكائن الحي على أساس إدراكه لنفسه وللموقف الذي يوجد فيه. وهذه النظرية يعود الفضل فيها ل Max فيه. وهذه النظرية يعود الفضل فيها ل Wertheimer من خلال مقولته المشهورة: «الكل سابق لأجزائه..» والجشطلت ليس بمعنى المجموع المكون من الأجزاء أو القطع الذي قد تجمع عناصره بشكل عشوائي... بل هو كل مترابط الأجزاء بانتظام، حيث تكون الأجزاء المكونة له مترابطة فيما بينها وفيما بين الكل ذاته.

ومع هاته النظرية سيصبح للتعلم معنى آخر سيتجاوز ما وقفت عنده أبحاث

السلوكيين: «إن التعلم الحقيقي هو بمثابة الوصول إلى الفهم العميق لما كان لامعنى له قبل التعلم أو بمثابة التجربة التي نصل فيها إلى الاستبصار الحقيقي».يمكننا أن نعود في هذا الباب من أجل مزيد من التعميق لما ذكره مصطفى ناصف¹² في كتابه:

كما سيصبح بسببها للوضعية مكانا واعترافا بأهميتها، بالإضافة إلى أن التعلم سيرتبط بحل الوضعية-المشكلة من خلال تحليل عناصرها ومكوناتها. وباعتماد مفهومي الإدراك والاستبصار: «هو تحقيق الفهم الكامل للأشياء كهدف للتعلم».

ليتولد عن ذلك مفهوم الانتقال الذي سيكون دليلا على تحقق الفهم من خلال انتقال الاستبصار الذي تم الوصول إليه إلى مواقف آخرى.

وربما نلمس حسب هاته النظرية تبشيرا بضرورة التفكير في وظيفية التعلمات، فالمعرفة أو المشكلة لايمكن للمتعلم أن يشتغل عليها دون تفكيك لعناصرها ومكوناتها وفهم لميكانيزمات اشتغالها وإعادة تشكيلها في كل له معنى أو ما يسمى بإعادة التنظيم.

إذا ما فكرنا فيما حملته النظرية الجشطلتية للتعلم، سنجد أنها اعتبرته عملية تتم بشكل كلي يتجسد فيه الفهم كمكون بارز لتضيف أن الخبرة والمعرفة المراد تقديمهما للمتعلمين من المفروض أن

تقدم بصفة كلية بدلا من الأجزاء على أساس أن يستثمر المتعلم خبراته ومكتسباته ويعمل على توظيفها في مواقف جديدة مشابهة...

- إدراك العلاقات في مجال الرياضيات من خلال الربط مثلا بين عدد من المفاهيم؛
- الطريقة الكلية في مادة الرياضيات بدل الطريقة الحزئية؛
- التركيز على التعلم القائم على الفهم.

Albert الاجتماعي. 5. نظرية التعلم الاجتماعي Bandura¹³

تمحورت فكرته حول التعلم بالملاحظة أو النموذج بمعنى تعلم الاستجابات أو الأنماط السلوكية الجديدة عن طريق ملاحظة سلوك الآخرين أو من خلال ملاحظة النماذج لذلك يعرف بالتعلم القائم على الاقتداء بالنموذج.

لقد استطاع باندورا بنظريته حول التعلم الاجتماعي بالملاحظة تجاوز المدرسة السلوكية التي اهتمت بدراسة الاستجابات الظاهرة في علاقاتها بالمثيرات الخارجية، دون مراعاة للعوامل الداخلية للفرد ودورها في حدوث التعلمات...

ويحصل التعلم بالملاحظة حسب باندورا من خلال أربع عمليات أساسية:

- الانتباه القصدي: ينتبه الفرد ويستقبل بدقة السلوك الملاحظ؛
- الاحتفاظ: تخزين السلوك الملاحظ في الداكرة البعيدة المدى على شكل رموز؛

- الاستخراج الحركي: يستخرج الفرد ما تم ترميزه إلى أنماط سلوكية جديدة؛

- الدافعية أو التعزيز: وهي العوامل التي جعلت الفرد يقتدي بالنموذج أو تقليد سلوكه...

6. النظرية البنائية Jean Piaget

يمكن اعتبارها مشروعا سيكولوجيا وازنا اعتبرت نتائجه مرجعا للبيداغوجيا والمناهج التربوية الفعالة على مدار عقود.

إن أول ما سيميز نظرية بياجي عن غيرها من المدارس السابقة هو نظرتها المغايرة للتعلم الذي اعتبره ثورندايك مجرد محاولات أو مجرد تراكم استجابات تصل بالكائن الحي حسب تصور سكنر إلى الإنجاز الكامل، في حين يعد التعلم من منظور بياجيتفاعلا تكيفيا يتم معه تمثل المعارف الجديدة في السياق المعرفي السابق بعد ملائمة المعرفة القديمة مع الحقائق الجديدة، فهو ينشأ عن التأمل كما أن التعزيز يكون ذاتيا نابعا من إحساس المتعلم بالمتعلم (موضوع التعلم) وليس خارجيا.

وهوما عرف، في كثير من الكتابات التي تناولت نظرية بياجي، بعملية الموازنة كعامل محدد يتدخل في تحقق التعلم إلى جانب العوامل الاجتماعية والمادية والنضوجية، فهي تساعده على جمع شتات المعلومات المتناثرة في فلك نظامه المعرفي حتى يتسنى له فهم ما يجري حوله محاولا تجاوز التناقضات

التي قد تعترضه وكمثال عن ذلك؛ نتذكر إحدى تجارب بياجيالتي جعلت الطفلة تعتقد أن صب محتوى كوب من الماء في كوب عريض سيحدد نفس المستوى عند صبه في الكوب الطويل الضيق.. وهو ما كان سببا في انزعاجها والموازنة ستكون هنا بمعنى بداية السير في طريق تحقق التكيف.

التكيف بدوره يتضمن مرحلتين أساسيتين: التمثل والملاءمة، فالتمثل سيتحدد من خلال انتقال المكتسبات والخبرات الحديثة وتحولها إلى معطيات مثبتة، غير أنها ستظل غير ذات قيمة لما قد يلحقها من تشويه نتيجة عدم الملاءمة والتي قال عنها مصطفى ناصف في نفس المرجع المشار إليه سابقا: «... أما الملاءمة فهي عملية الانتباه التي تختص كلية بالتجربة الجديدة وبصورة مستقلة عن الخبرات السابقة»

• مرجعية النظرية البنائية:

• لقد انتقد بياجي السلوكيين نظرا لعدم اعترافهم بوجود بنية داخلية نفسية، كما أنه عاب على الجشطلتيين نظرتهم الجامدة والثابتة للوعي... مشيرا إلى مراحل التفكير المنطقي للطفل؛ كما أنه عرف كذلك بانتقاده الواضح للمدرسة في شكلها الكلاسيكي: «بدون شك يمكن للطفل أن يولي للعمل – المنطلق هنا من خلال ما جاء في سابق كلام بياجي أن المؤسسة أو الأستاذ هي من

عليه تحديد طبيعة نوع ذلك العمل - حيزا قد ينقص أو يزيد من الاهتمام والمجهود الشخصي، غير أن ذلك يبقى رهينا إذا ما كان المدرس مربيا جيدا، فتعاونه مع تعلميه سيحدد هامشا قيما للنشاط الحقيقي»16.

• التحديد المفاهيمي:

-مفهوم المعرفة: يعرفها معجم علوم التربية بأنها: «كل الأفكار والمعارف والمعلومات والمعتقدات والقيم التي تراكمت عبر السنين والحقب، لتشكل تراثا ثقافيا ومعرفيا للإنسان، والتي تنظم عادة في شكل مذاهب أو نظريات أو أنساق أوتخصصات متمايزة عن بعضها، مثل الفلسفة والفيزياء والأخلاق والمنطق والرياضيات»17

-مفهوم التكيف l'adaptation : "إن التكيف هو غاية عملية الموازنة بين الجهاز العضوي ومختلف حالات الاضطراب واللانتظام الموضوعية أو المتوقعة والموجودة في الواقع» 18

مفهوم الاستيعاب والتلاؤم l'assimilation et l'accommodation:

• الاستيعاب: إنها آلية سيكولوجية تسمح للفرد بإدخال مكونات المحيط إلى العقل، ليمارس عليها عملية الإدراك، الفهم، التأويل والتفسير... إنها عملية «تحويل المعارف الجديدة وتملكها انطلاقا من

مفاهيم المتعلم الخاصة. وبالتالي فلا مجال لمطالبة المتعلمين بتكرار المادة المقدمة لهم، ولكن بتأويلها وفق مفرداتهم الخاصة» 19.

- التلاؤم: إنها العملية التي تسمح للفردبتعديل أنشطته وعملياته، وبنياته الفكرية حتى تصبح في مستوى فهم وتفسير ما يجري في الواقع من أحداث، ووقائع، وتغيرات مختلفة.
- - مفهوم الموازنة والضبط الذاتي l'équilibration et l'autorégulation:
- الضبط الذاتي هو نشاط الذات في التجاه تجاوز الاضطراب.
- التوازن هو وضعية التناغم والتوازن مع الموضوع.

-مفهوم السيرورات الإجرائية: هنا تتمركز خلاصة التفسير البنائي عند بياجي، فالمعرفة من منظوره ليست فطرية ولا تكتسب جاهزة من الخارج ولا هي نسخ للواقع أو انطباعا تجريبيا كما تصوره جون لوك، بل التعلم هو عملية بناء...

-مفهوم التمثل والوظيفة الرمزية: التمثل في نظربياجي هو بناء للواقع على مستوى أجهزة الذات المعرفية بواسطة أدوات الوظيفة الرمزية أي اللغة.

-مفهوم خطاطات الفعل: خطاطة الفعل هو نموذج سلوكي خالي من المنطق يشكل مع خطاطات أخرى أجزاء الفعل التي من الممكن أن تتناسق لتشكل سلوكا معقدا أو خطاطة كلية... إنه منطق الفعل العملي الذي ربطه بياجي بالمرحلة الحسية-الحركية.

• مراحل نمو وتطور التفكير:

لارحلة الحسية-الحركية (من الولادة إلى سنتين)

✓ مرحلة ما قبل العمليات المنطقية (من سنتين إلى حوالي السنة السابعة)

 ✓ مرحلة العمليات الملموسة (من السابعة إلى حوالى السنة الثانية عشرة)

✓ مرحلة العمليات التجريدية (تبدأ تقريبا من سن الثالثة عشرة...)

• والتعلم:

✓ دحض فكرة الرأس الفارغة وإثبات
وجود معارف وخبرات قبل المدرسة؛

√ التأكيد على التعلم القائم على الفهم؛

✓ يختلف مع المنهج التوليدي السقراطي
ويتبنى الوضعية-المشكلة؛

✓ المعرفة القبلية للمتعلم شرط أساسي
لبناء التعلم؛

✓ البناء لا يتم إلا من خلال استنتاجات
استدلالية،

√ الخطأ يعد شرطا أساسيا للتعلم.

• محدودية النظرية البنائية: انتقدت

من طرف أصحاب التصور السوسيومعرية أو التعلم الاجتماعي التي ترى قصورا في مفهوم الصراع المعرفي الداخلي في حين أن التعلم يكتسي طابعا اجتماعيا.

نجد أن جميع هاته التصورات والمباحث التي تناولت موضوع التعلم بالدراسة والتحليل أجمعت على تغييب البعد الاجتماعي في كل من تجاربها واستنتاجاتها وكدا قصورا في استحضار مفهوم الشخصية والذي سيصبح بعد تطور الأبحاث مركز اهتمام لعدد من البيداغوجيات؛ فالبيداغوجيا الفارقية ترى في اختلاف شخصيات المتعلمين أحد أهم محددات التفريق أو التمييز...

وتبقى المحدودية موضوعية لكون الاختبارات الإكلينيكية التي قام بها بياجي على مجموعات مختلفة من الأطفال طرحت عليهم نفس الأسئلة من أجل المقارنة فيما بينهم على مستوى الذكاء... وهو ما لا يسمح بتقدير حقيقي لحجم الفروقات فيما بينهم.

وحتى نرى الأمور بوضوح أكبر سنستدعي أحد التصورات التي أسست على مبدأ استحضار البعد الاجتماعى:

7. النظرية السوسيوبنائيةLev Vygotski

بالنسبة إليه يتحقق التعلم بناء على التفاعل الذي من المفروض أن يحصل بين الموضوع والذات والآخر من خلال العلاقات الاجتماعية التي من شأنها أن تتفاعل في سياق ثقافة معينة.

لقد اعتبر أن ذكاء الطفل يتطور من خلال عدد من الوسائل الاجتماعية والتي من بينها اللغة؛ ليتحدث بعدها عن أهم خلاصة توصل إليها، إنها المنطقة المجاورة للنمو كما راقت له تسميتها développement والتي تتحدد كفارق بين ما بإمكان المتعلم أن يقوم به بمفرده وبين ما سيقوم به فعلا بمساعدة الآخرين.

لقد أبان فيكوتسكي عن تصوره فيما يخص شكل نمو لغة وتفكير الطفل؛ فهو يعتبر أن الاتجاه الصحيح لنمو التفكير يكون منطلقا من المجتمعي إلى الفردي على النقيض من التصور الذي يراه معكوسا. ويمكننا أن نفهم بشكل أكبر تصور فكوتسكي من خلال الانتقاد الذي وجهه لبياجي كما جاء على لسانه: «وإذا كان علينا أن نلخص عيوب نظرية بياجي، فتحن كنا نريد أن غير إلى أنها حقيقة واقعية. وأن العلاقات

بين الطفل والواقع كانت قد أغفلت في هذه النظرية ثم إن عملية التنشئة الاجتماعية تظهر كتواصل مباشر بين الناس مما هو منفصل عن النشاط العملي للطفل. واكتساب المعرفة وما تتضمنه من صور منطقية يعتبر نتيجة لضروب تعديل ميل تفكيره وتكيفه مع الآخر ولا تقوم المواجهة العملية مع الواقع بأي دور في هذه العملية وإذا ترك الطفل مع ذاته فقد ينشأ له فقط تفكير هذياني. ولن يستطيع الواقع أن يعلمه أي منطق»²¹.

تبقى هاته النظريات على اعتبار شتات ما حملته لمجال التعلم ذات راهنية نعتبرها مثمرة إذا ما عملنا على استثمار إيجابياتها وليس بالنظر لما راكمته من إخفاقات كما هو الحال بالنسبة للمدارس السلوكية، كما أن البنائية ستظل مرجعا نهلت منه العديد من المقاربات البيداغوجية إلى غاية أن طورت شكل حضورها الذي أصبح لافتا للنظر ومحفزا لعديد من الباحثين والمهتمين بالشأن التربوي... فكيف استمرت المقاربات البيداغوجية في تشكيل تنوعها خدمة للتعلم المنهج المبني على أسس علمية؟ وإلى أي حد استطاع التنوع البيداغوجي أن يكون موفقا في تيسير الظروف المواتية لحدوث التعلم؟

5 - Edward Lee Thorndike est un psychologue américain (1874 - 1949)

6 - يمكننا أن نشير في هذا الصدد إلى مفهوم التألية كما تحدث عنه ميلود التوري في كتابه: "من تألية السلوكات وتعويدها إلى إكساب الكفايات وتقويمها" ص.8. "التألية هي مجموع الإجراءات (أو العمليات) التي تجعل من السلوك فعلا يمارس بطريقة أوطوماتيكية لا واعية لدرجة يصبح فيها عادة تنتظم في النسق الكلي لسلوكات الفرد الشبه ثابتة".

7 - رأينا كيف ربط ثورندايك بين السلوك والجهاز العصبي من خلال المنطلق السلوكي: مثير - استجابة، لذلك سيكون قانون الأثر حسب ما فهمناه هو ذلك الأثر الناتج عن الإشباع والذي يعمل باستمرار على تقوية الارتباط بين الخلايا العصبية المتدخلة لاستقبال المثير وبين حدوث الاستجابة.

8 - التوري ميلود، 2005، من تأليةالسلوكات وتعويدها إلى إكساب الكفايات وتقويمها، فاس، مطبعة آنفو-برانت، ص.12.

9 - Ivan Petrovitch Pavlov est un physiologiste et psychologue russe (1849-1936)

10 - SKINNER BURRHUS FREDERIC. 1968. la révolution scientifique de l'enseignement. Ed. Dessart. p.48.

Wolfgang Köhlerest un psychologue – 11 (allemand (1887 – 1967

12 - ناصف مصطفى: نظريات التعلم - دراسة مقارنة - ترجمة علي حسين حجاج، اكتوبر 1983، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص. 219.

لما كان التعلم عملية اكتشاف للبيئة والذات

الهوامش

1 - عرفها احمد صالح في كتابه: علم النفس التربوي. ص.309.كالتالي: "الشخصية - من وجهة نظر سيكولوجية - هي ذلك الكل المشكل من الأنساق السلوكية الشبه ثابتة الميزة لفرد بعينه المتررة لأساليبه الخاصة في تكيفه مع المحيط".

2 - للتعلم تعاريف كثيرة، منها ما هو سيكولوجي عام، ومنها ما هوبيداغوجي خاص. فمن الناحية العامة، عرف التعلم بأنه: "عملية اكتساب أو تغيير دينامي وداخلي لدى شخص ما يبني- بفعل الإرادة الذاتية والرغبة في التطور- تمثلات جديدة متماسكة ودائمة يفسر بها واقعه انطلاقا من إدراك ومعرفة المواد والمنبهات الصادرة عن المحيط الذي يعيش فيه، ومن التفاعل بين المعطيات الداخلية للذات والخارجية عنها، وبين الوعى الشخصى لتلك الذات". أما المعنى البيداغوجي الخاص المرتبط بعمليات التعلم المدرسي، فيقدمه لنا المعجم التربوي-المقصود هنا هو معجم التربية لرونالد لوجوندر Renald Legendre كما يلى: "(التعلم) مجموعة من الأنشطة التي يضعها فاعل ما رهن إشارة شخص ما، أو يتم تصميمها وتخطيطها من طرف ذلك الشخص ذاته، تكون قادرة على توليد عملية داخلية لديه في اتجاه التوصل إلى أهداف محددة". ص.85-84.الكتاب ل "عبد الحق منصف" يحمل عنوان "رهانات البيداغوجيا المعاصرة". وقد صدر عن افريقيا الشرق سنة 2007،

3 - غريب عبد الكريم، 2006، المنهل التربوي- الجزء الأول، الدار البيضاء، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، ص.71.

4 - لالاند اندريه ،2001، موسوعة لالاند الفلسفية - المجلد الأول، بيروت باريس، منشورات عويدات، ص. 1454.

16 - PIAGET JEAN, 1990, Psychologie et pédagogie, France, Collection Folio/ Essais, p.205.

17 - غريب عبد الكريم، 2006، المنهل التربوي- الجزء الأول، الدار البيضاء، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، ص.49.

18 - خالد المير و آخرون،،1996 نظريات التعلم، سلسلة التكوين التربوي، الدار البيضاء، ع 2 ، مطبعة النجاح الجديدة ، ص. 34 .

19-MASCIOTRADOMINICO. 2007. Le constructivisme en termes simples, vie pédagogique. n0143. p.50.

20 – Lev vygotski est un psychologue soviétique (1896 – 1934)

21 - ليف فيكوتسكي: الفكر واللغة - النظرية الثقافية التاريخية - ترجمة عبد القادر قنيني، 2013، الدار البيضاء، افريقيا الشرق، ص.67.

فإن مظهره الحاسم هو المظهر المعرفي. والتعلم يعني اكتشاف طبيعة الحقيقة أو معرفة ما هو حقيقي. والتعلم متعلق بإدراك ما هو حاسم في أي موقف من المواقف. أو معرفة كيف تترابط الأشياء والتعرف على البنية الداخلية للشيء الذي على المرء أن يتعامل معه... وإذا لم تكن المشكلة التي تعرض عليك ذات معنى أي إذا كانت بنيتها الداخلية تبدو مبهمة عليك أو إذا ما بدت لك خليطا غير منظم من الارتباطات الاعتباطية... فإن إدراكك لهذه المادة سيظل غير منظم وباهت وغير متميز ما تتعلمه يبقى لذلك غير منظم وباهت وغير متميز ...

13 - Albert Bandura est un psychologue canadien

14 – Jean William Fritz Piaget est un psychologue, biologiste et épistémologue suisse (1896 – 1980)

15 - المرجع السابق. ص.284.